مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

دور المرأة في ترسيخ الحوار الديني: تجارب مبتكرة في السلم الأهلي

حُسن عبود
باحثة لبنانية

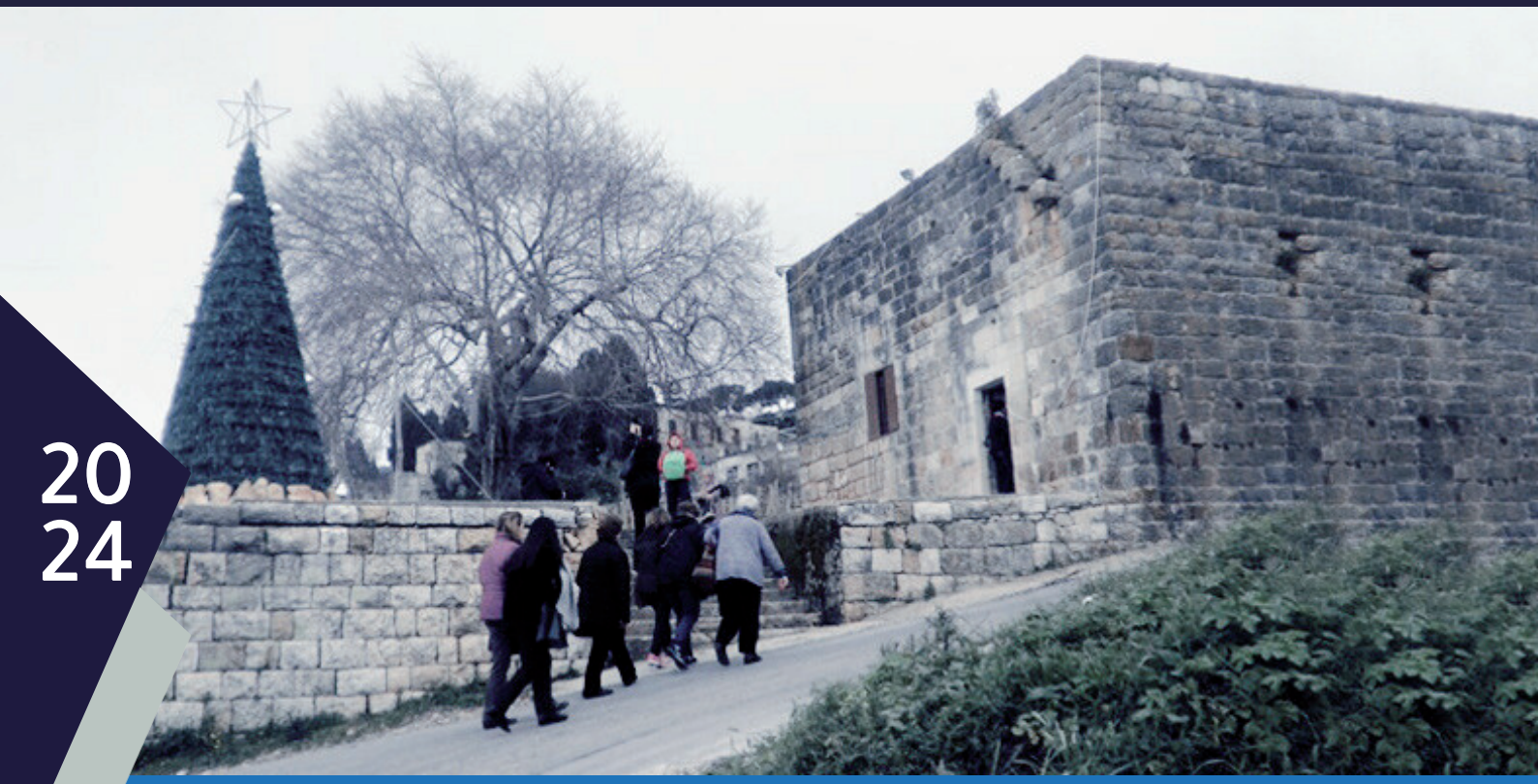

2024

- **بحث محكم**
- **قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة**
- 03 يونيو 2024

جميع الحقوق محفوظة © 2024

دور المرأة في ترسيخ الحوار الديني:
تجارب مبتكرة في السلم الأهلي

إنّ فكرة إيقاظ همّة النساء للعب الدور المهم في خلق ثقافة السلام وإدارتها لهي فكرة خلاّقة.

الملخّص:

تعرض هذه الورقة دور المرأة في ترسيخ الحوار المسيحي- الإسلامي من خلال تجارب مبتكرة دعت إليها النساء للتعارف والتلاقي ودفع السلم الأهلي وحمايته. أولها، حركة تقوم على السياحة الدينية في الداخل اللبناني (**حركة درب مريم**). نشأت - بعد انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية (1975-1990)- حيث استيقظ اللبنانيون فجأةً على حاجة ملحّة للتعارف من جديد والتواصل على أسس من القيم والتسامح الديني والتفاعل الثقافي مما يساهم في عملية السلام. ثانيها، ترتكز على برنامج تعليمي أوروبي مدّته سنتان (**المشروع الأوروبي لتبادل المعرفة حول الأديان**)، صُمّم لفهم التنوّع الديني وإدارته في أوروبا، حيث التعددية الثقافية والدينية إحدى سمات مجتمعاتِها المعاصرة، وقد ساهم لبنان في هذا المشروع من موقع تجربته الطويلة في التعايش (أو التصادم). يهدف المشروع إلى بناء مجتمعات متساوية في الحقوق والواجبات وسلمية في التعامل فيما بينها.

تضيف الورقة إلى هاتين التجربتين شرح خلفية احتفال اللبنانيين، مسيحيين ومسلمين، **بعيد "البشارة"**، يوم 25 آذار من كل عام، حيث أصبح هذا العيد المريمي عيداً وطنياً ورسمياً (منذ عام 2010) يشارك فيه الجميع. يستدعي هذا العيد شخصية دينية نموذجية ترمز إلى الحضور الأمومي الذي يجمع ولا يفرّق. سنشاهد فيلماً قصيراً عن احتفال العام الماضي 25 مارس، 2014.

Christian - Muslim Dialogue: Innovative Experiences of Civil Peace

This paper presents two experiences of Christian - Muslim Dialogue in Lebanon and Europe that call for an encounter to manage and protect civil peace: The first movement organizes religious tourism in Lebanon, emerging at the end of the civil war in Lebanon when activists realized that there is an urgent need to know each other again, to communicate on the basis of new attitudes and to interact in a way to contribute to a project of peace (Darb Maryam). The second movement is based on a learning project spanning two years and is designed to understand and manage pluralism in Europe, where cultural and religious pluralism is a key feature of its contemporary societies. The project aims to build citizens with equal rights and duties who are peaceful in dealing with each other (European Project for Interreligious Learning).

In addition to these two experiences, this paper explains the background of the Annunciation Feast (March 25 of every year), which is celebrated by both Christians and Muslims in Lebanon. The Annunciation Feast is now an official holiday (since 2010). A short film of last year's celebration will be screened.

Key Words: Darb Maryam; Religious tourism; European Project for Interreligious Learning; Roaming Academy; Religious and cultural pluralism; Rules for Dialogue; Annunciation Feast; Principle of Mercy; Coexistence and civil society.

تلتقي سيدات من لبنان للتعارف ولدفع السلم الأهلي إلى الأمام وحمايته، من خلال السياحة الدينية في الداخل اللبناني على طريق أسموه **"درب مريم"**. سأعرض أهداف هذا الطريق بإيجاز ومن ثم نتائج الحرب الأهلية اللبنانية (1975-1990) على المجتمع اللبناني خاصة في منطقة جبل لبنان، حيث قامت سيدات "درب مريم" برحلة مؤخراً إلى بلدة عبيه، البلدة التي تشبه لبنان في تاريخها الديني والثقافي المتنوع. وقد انتهت الحرب الأهلية منذ أكثر من عقدين من الزمن إلاّ أنّ بعض المناطق اللبنانية لم تشهد فعلياً عودة الأهل إلى قراهم لأنّ مقومات التعايش بعد المصالحة والتسامح لا تزال مفتقرة. وهذا فعلاً ما حصل بين الموحدين الدروز والمسيحيين في عبيه. من هنا لا بد أن أنوّه: أنّ ما تقوم به هؤلاء السيدات من سياحة دينية تحت رمزية "السيدة مريم" (عليها السلام)، وبغرض السلم الأهلي وعودة الحياة إلى طبيعتها، لهي فكرة خلاقة ممكن تطبيقها على مجتمعات تعيش نوعاً من الحساسية الطائفية أو العرقية أو القومية فتقوم سيدات بمبادرة كالتي سأخبركم عنها.

1. حركة "درب مريم"

"درب مريم" هي حركة شاركت بتأسيسها سيدات لبنانيات مؤمنات بالحضور المريمي المشترك بين المسيحية والإسلام. تسعى هؤلاء السيدات إلى التعارف والتلاقي بين اللبنانيين لبناء السلوك التائق إلى المعرفة والصراحة والانفتاح، ومراعاة "الآخر" في معارفه وخصوصيّاته وهمومه والمشاركة معه في التفكير والتخطيط لخير الإنسان والوطن.

لماذا مريم (عليها السلام)؟

لأنّ السيّدة مريم ترمز إلى الأمّ التي تجمع ولا تفرّق، وتمثّل صورة المرأة المتواضعة أمام الله و"الآخر". في المسيحية هي أمّ المسيح؛ لها معطى كتابي وترنيمة في الإنجيل (بحسب لوقا) ومن خلالها يعيش المسيحي تقواه والشفاعة لها، ونشأت حولها العقائد الدينية وكرّسَت لها الصلوات والكنائس والمزارات.

وفي الإسلام لها ذكرٌ يخصّها لذاتِها كما لأمومتِها، وهي المرأة الوحيدة المسماة باسمها وباسم أمومتها، وصورتها، وهي تهزّ جذع النخلة إليها لتأكل وتشرب وتقرّ عينها بولدها، تمثل استخلاف المرأة على الأرض. وهي الطريق لفهم مكانة السيد المسيح لدى المسلمين، ويحتفى بها وبابنها في قيمة "الرحمة الربّانية" المتجذرة بين المسيحيين والمسلمين، والجامعة بين التقوى الروحية والقيم الأخلاقية.

من أهم النشاطات التي تقوم بها حركة درب مريم هي **السياحة الدينيّة** في مختلف المناطق اللبنانيّة المتضررة بفعل الحرب وآثاره. وتأخذ هذه السياحة المشاركين - على طريق الرحلة - إلى أمكنة داخل لبنان،

وإلى دواخلهم التائقة إلى الحريّة، حيث التأمل والتعارف والتعايش في رحلات موسمية، وحيث تتاح لهم فرصة زيارة معالم لبنان الطبيعية والثقافية والدينية. وأهم من المعالم هو التواصل مع الأهل لإبداء المحبّة اتجاههم والعمل على دفع عملية السلام بين الفئات التي اقتتلت إلى الأمام. ومن النشاطات الأخرى التي تنظمها حركة درب مريم هي التالي:

- **قراءة التراث الكِتابي** (الكتاب المقدس بعهديه والقرآن الكريم) **بوصفه تراثًا واحدًا** لفهم موقع السيدة مريم في المعطى الكتابي بين التوافق والتغاير بالروايات. ولفهم العقائد الدينية في سياق تطور الفكر اللاهوتي وتاريخ الأفكار التي جاءت بها الرسالات التوحيدية. والمشاركة في سماع التراتيل المسيحية والإسلامية والأذكار الصوفية في الأعياد الرسمية.

- **التضامن الأخلاقي والروحي والثقافي والشراكة** مع بعض الجماعات التي التقت معها الحركة في مسيرتها، كجمعية "لنتقي"، و"معاً حول سيدتنا مريم" و"مؤسسة أديان"،[1] ومركز "وايك" الثقافي[2] وغيرها.

- **التفكير في خطوات لحماية البيئة اللبنانيّة** لأنّ المرأة هي التي تحتضن الحياة فهي الأكثر خوفاً على التعدّي على الطبيعة اللبنانية ومقوّمات الحياة وعناصرها.

- المطالبة **بحقوق المرأة في دينها** (المسيحية والإسلام) والعمل على إزاحة الذهنية الذكورية التي تنتقص من أهليتها الدينية وقدراتها الروحية، ودورها التاريخي في بناء عالم سلمي. وأخيراً الاعتراف بدورها الفعّال في الحوار الحضاري بين المجتمعات.

نموذج السياحة الدينية: رحلة إلى بلدة عبيه:

قامت سيدات درب مريم بعشرات الرحلات منذ بداية السير على درب السلام (2002)[3]، سأذكر الرحلة الأخيرة (يوم السبت الواقع 28 فبراير 2015) إلى بلدة عبيه، محافظة جبل لبنان، التي تمّت المصالحة فيها

[1] https://www. google.com/search?rls=aso&client=gmail&q=مؤسسة أديان

[2] http://www.wakeonline.org/

[3] على سبيل المثال قمنا برحلة إلى الجنوب في موقعين: صيدا - مغدوشة (9 أكتوبر، 2004) قضاء عاليه: القماطية - عين تريز (1 أكتوبر 2005) الشمال: طرابلس- القبّة (28 آذار 2006) الجنوب: زيارتان إلى قانا (أيار 2007) الجنوب: النبطية - مرجعيون (6 نوفمبر، 2010) الشوف الأعلى: نيحا- مشموشة (1 ديسمبر، 2012) وآخرها عبيه - عاليه (28 فبراير، 2015). ما زلنا بعد 12 سنة حاضرات على أرض الواقع وفاعلات فيه.

مؤخراً بين الموحدين الدروز والمسيحيين (أواخر 2010).[4] والحرب التي اشتعلت بعد الاحتلال الإسرائيلي للبنان واجتياح بيروت (1982)، اشتعلت معها ما عرفت لاحقاً بـ "حرب الجبل" بين القوات اللبنانية (ميليشيا مسيحية) والحزب التقدمي الاشتراكي (حزب - ميليشيا درزية). ووصل عنف هذه الحرب إلى أقصاه عام 1983 إذ انتشرت المجازر بين المسيحيين والدروز في أكثر من 27 قرية (في الجبل). ونتيجة لذلك، نزح أكثر من عشرين ألف مسيحي (20000) إلى بلدة دير القمر المسيحية حيث حُصِروا فيها لأشهر. وانتهت حرب الجبل في العام 1984، بانتصار الحزب التقدمي الاشتراكي مدعوماً من قوى اليسار اللبناني والجيش العربي السوري[5].

أما حصيلة "حرب الجبل" فكانت كارثية على النسيج الاجتماعي الذي كان قائماً قبلها على العيش المشترك السلمي. فبين أيلول 1983 وكانون الأول 1983، أحصيت الأعداد التالية من الجانب المسيحي: حيث نزح من الجبل في هذه الفترة أكثر من مئة وستين ألف مسيحي (160000)، *ألفان وسبعمائة* مفقود من المدنيين (2700)، مقتل ألف ومئة وخمسة وخمسين مدنياً (1155) إضافة إلى مقتل ثلاثمائة وثمان وستين مقاتلاً من القوات اللبنانية (368)[6].

أما الضحايا من جانب الدروز فأتت على الشكل التالي: ثلاثمائة وأربع وعشرون (324) من مقاتلي الحزب التقدمي الاشتراكي، ومائتان وسبع (207) ضحايا من المدنيين الدروز[7].

بلدة عبيه ومعالمها الدينية والثقافية:

تقع بلدة عبيه على سفح جبل مطيَّر (ارتفاع من 800 م إلى حوالي 850م) وهي تشرف مباشرة من الناحية الغربية على البحر (الأبيض المتوسط) وتظهر لها بيروت (العاصمة) ككفّ مبسوطة. كانت بلدة عبيه مركز التنوخيين، لها تاريخ عريق في نشأة الإمارات العربية في لبنان مثل التنوخيين والبحتريين والمعنيين

[4] يعدّ الدروز أقلية في لبنان مقارنة بباقي الطوائف، إذ لا يتجاوزون الـ8% من مجمل سكان لبنان البالغ عددهم حوالي 4 ملايين نسمة، ويتوزعون بشكل أساسي ما بين سنة وشيعة ومسيحيين. وينتشر الموحدون بشكل خاص في منطقة الجبل اللبناني، وبالتحديد في جبل لبنان الجنوبي، ولاسيما في مناطق الشوف، عاليه، المتن، كما في وادي التيم، راشيا وحاصبيا (البقاع وجنوب لبنان)، فيما تعيش أقلية منهم في العاصمة بيروت. والموحدون يقولون عن أنفسهم إنّهم مسلمون؛ فهم يعتبرون القرآن الكريم كتابهم الأساسي، إلا أنّهم، وفي بداية القرن الحادي عشر الميلادي، ومن القاهرة، انطلقوا بمذهب جديد على أيدي أئمة فاطميين يقوم على الإسلام قاعدةً أساسية، وعلى الايمان والاجتهاد، ويتأثر بالفلسفة والتصوف..

ويقوم مذهب الموحدين الدروز على مبدأ التصوف، فتُقام الصلوات في مجالس أو خلوات، وهي عادةً تكون أماكن متواضعة لممارسة العبادة. ويُعرف عن الموحدين الدروز أنّهم يمارسون عبادتهم في تكتم وسرية، ويتردد أن عندهم كتابًا عن "الحكمة"، يرفضون تعميمه أو الكشف عن محتوياته.

[5] De Clerck Dima, «Guerre, rupture et frontière identitaire dans le Sud du Mont-Liban», *Vingtième Siècle. Revue d'histoire* 3/2009 (n° 103) , p. 163-176.

[6] Boutros Labaki et Khalil Abou Rjeily, *Bilan des guerres du Liban, 1975-1990*, Paris, L'Harmattan, 1993.

[7] De Clerck Dima, «Guerre, rupture et frontière identitaire dans le Sud du Mont-Liban», *Vingtième Siècle. Revue d'histoire* 3/2009 (n° 103) , p. 163-176.

والشهابيين. ويدل موقعُها الاستراتيجي، القريب من البحر وبيروت (22 كلم عن العاصمة)، ومعالمها العمرانية "على عراقة إيمانية توحيدية جسّدتها أبنيتها التنوخية، وتبدو أيضاً في تاريخها الثقافي إذ انبثقت من رحمها الكلية السورية الإنجيلية المعروفة لاحقاً بالجامعة الأميركية في بيروت.[8]" عاش سكان عبيه قبل الحرب مع بعض مسيحيين ودروزًا، في جيرة واحدة وبيوتهم أحياناً سقفها واحد، وتتداخل بعضها في بعض. وسكانُ عبيه اليوم الأكثرية من الدروز حيث يعيش 2500 نسمة إلى جانب 12 عائلة مسيحية حتى الآن.

هناك معالم دينية وتعليمية تدل بالأخص على الدور الذي لعبته عبيه في تاريخ الجبل والمنطقة. سأذكر أهمها: **مقام السيد عبد الله التنوخي** (مواليد 1417م) المصلح الاجتماعي والأديب الذي عرفته بلاد الشام وكان من أعلامها المعروفين. ويعتبر مقامه مقصداً ومحجّاً للموحّدين الدروز الذين يأتونه من مختلف المناطق اللبنانية لأجل التبرك والتأمل والاحتفال يوم عيد الأضحى وقد رُمِّم المقام عام 1984. نجد في عبيه وجودًا لسبع كنائس أقدمها **دير آباء الكبوشيين**، الذي افتتح في 29 أيلول 1645، وقد قدم الكبوشيون بحماية من صديقهم الأمير فخر الدين المعني، وتابعوا رسالتهم الروحية والطبية مع انقطاعات لفترات بسبب نشوب الحرب. كان الكبوشيون أوّل من بادر بعد حرب الجبل بترميم الكنيسة والدير، وكان احتفال التدشين في 30 أيلول 2012. **المدرسة العالية الأميركية أو** ما سمّي آنذاك بمعهد اللاهوت في عبيه، التي أُسِّسَت في عبيه عام (1846) قبل تأسيسها في بيروت بجهد الثنائي فانديك وبطرس البستاني لتصبح عام 1866الكلية الإنجيلية السورية، والتي أصبحت فيما بعد الجامعة الأميركية في بيروت.[9] ثم تأسست **المدرسة الداوودية** عام 1862 وسمّيت باسم داود باشا أوّل المتصرفين العثمانيين، وكانت له اليد الطولى في إنشائها لحاجة طائفة الموحّدين الدروز لإقامة مدرسة لأبنائهم، وحوّل الأوقاف الدرزية العامة إلى تصرّف المدرسة لتخصيص مداخيلها وتيسير أمورها. خرّجت المدرسة نخبة من الرجال وكادرًا تعليميًّا له الفضل في إنشاء المدارس في القرى المتنية والشوفية (نسبة إلى المتن والشوف). توقفت المدرسة عام 1982 مع الاجتياح الإسرائيلي للبنان، وبعد جهود حثيثة من رابطة أبناء الحكمة وجمعية إحياء تراث عبيه، بالتعاون مع المجلس المذهبي الدرزي أعيد ترميم البناء، وتحوّلت المدرسة مقراً للمعهد الجامعي للتكنولوجيا التابع للجامعة اللبنانية فرع عبيه، الذي افتُتح عام 2009 وخرّج الدفعة الأولى من طلابه عام 2012.

[8] رياض غنّام، "عبيه والتقاطع المعرفيين التعليم والتبشير" في عبيه في التاريخ وثائق المؤتمر التاريخي الأول لبلدة عبيه (20-21 نوفمبر، 1999) لجنة إحياء التراث عبيه، 2000

[9] تمّت ترجمة الكتاب المقدس لأول مرة في الشرق إلى اللغة العربية برئاسة د. ك. فانديك والمعلم بطرس البستاني والشيخ يوسف الأسير كما أسست أول مدرسة طبّ في الشرق على الطريقة الحديثة وأجريت فيها علميات جراحية حسب المقاييس العلمية الحديثة.

كما نرى من تاريخ عبيه وآثارِها العمرانية (الدينية والتعليمية)، فإنّ تاريخ التبشير المتقاطع مع الحركة الطبية والتعليمية قد غزت الجبل. وكانت جزءاً من عمل سياسي كبير تنافسي بين الأوروبيين والأميركيين أسفرت عن زرع بذور الفتن بين الطوائف. فلم تكن الحرب الأهلية الأخيرة هي الأولى في جبل لبنان (حرب 1860 المؤسفة)، لذلك كانت التربة خصبة، حين وقعت الحرب الأهلية اللبنانية (انتهت 1990)، التي نتج عنها تدمير معالم وهجرة عائلات إلى أن تمت المصالحة الفعلية في أكتوبر 2010 وتسليم أملاك المهجّرين عام 2011.[10] فالمصالحة تمّت بين الدروز والمسيحيين بعد 28 سنة من التهجير، ممّا جعل عودة المهجرين المسيحيين عودة خجولة، لأنّ الجيل الجديد قد استقر في مناطق أخرى من لبنان أو هاجر خارج لبنان وجاء جيل جديد قد استقر في مناطق أخرى أو هاجر خارج لبنان ففقد صلاته مع جذوره في عبيه.

يوم الرحلة إلى عبيه (28 -2- 2015):

انتلقت مجموعة تتألف من أربعين شخصًا الساعة 8:00 صباحاً من بيروت ووصلنا بعد 45 دقيقة إلى عبيه حيث كان أعضاء من المجلس البلدي ورئيس البلديّة، والمختاران (مختار درزي ومختار مسيحي)، وسيّدات المجتمع الأهلي بانتظارنا في مقرّ البلدية. وكانت قد أعدّت لنا مائدة فطور مع الشاي والقهوة لنتشارك الطعام والجلوس حول مائدة التعارف والحوار.

قمنا بالتعريف بأنفسنا وقام المضيفون من فعاليات عبيه بالتعريف بأنفسهم. وكذلك المختار (غسان خوري) ورئيس البلدية (غسان حمزة)، ورئيس جمعيّة الشباب (شادي حمزة) ورئيسة جمعية سيدات عبيه (ميرفت جابر)، وكرام البلدة. وبعد التعارف والفطور قرأت شيخة الطريقة التيجانية في بيروت (الشيخة حياة البنّا) تلاوة عشر من القرآن الكريم وقرأ الصديق فهيم سماحة صلاة "أبانا الذي في السموات ليتقدّس اسمك". ثم قدّمت السيدة عِفَت حمزة (عن الدروز) والسيدة عِفَّت كنعان (عن المسيحيين) - وكلاهما ينتميان إلى الفئتين اللتين اقتتلتا زمن الحرب - شهادتين عن واقع التعايش في الماضي بين أهل عبيه.

[10] الجدير بالذكر أنّ التنوع الديمغرافي في لبنان قد يتبخر بسبب هجرة المسيحيين المستمرة من لبنان. للتغييرات الديمغرافية في لبنان، انظر دراسة يوسف شهيد زخيا الدويهي، **اللبنانيون 1907- 2006: التوزيع المذهبي والديني والسكاني**، بيروت، د.ت.

ثم بدأت السياحة الدينية في زيارة مقام السيد الأمير جمال عبد الله التنوخي، بِحضور سماحة الشيخ سليم وهبِه، وزيارة قصيرة إلى بيت اليتيم الدرزي، فجولة قصيرة في شوارع عبيه القروية للتمتع بالطبيعة الخلابة ولمعاينة الأبنية التاريخية. فزرنا دير الكبوشيّن وكنيسة مار مارون وكلاهما رمما كما ذكرنا.

دخلنا القصر التنّوخي الأثري[11]: القسم الأكبر والأقدم يعود إلى الحقبة التنوخية عام 1325 وهو الذي بناه الأمير ناصرالدين التنوخي الذي اهتم بالفلك والطب والصيدلة والحرير والنسيج وفن الكتابة والتنجيم، وكان شاعراً وأديباً. في عهده اشتهر المؤرخان صالح بن يحيى (مؤرخ العائلة التنوخية) وابن سباط. في قصر التنوخيين هذا ولدت الأميرة التنوخية الملقبة بست نسب، أم الأمير فخر الدين الثاني المعني، وكانت ضليعة بعلم التنجيم. والجدير بالذكر أنّ آثار التنوخيين في لبنان تقتصر على مبنيين فقط: جامع الأمير منذر في بيروت وقصر التنوخيين في عبيه. عام 1633 م قضي على الأمراء التنوخيين في الحرب القبلية والتنافسية على السلطة في الجبل. أما الجزء الآخر من القصر فقد بناه الأمير قعدان الشهابي (1782م) واستمر القصر مركزاً للشهابية إلى سنة 1860، بعدها تحول القصر إلى محكمة قضاء الشوف في عهد المتصرفية. وفي سنة 1902 اشترى القصر من آل شهاب الأستاذ سليم رستم كنعان. والآن يعمل أصحاب القصر من آل كنعان، أولاد الدكتور جميل سليم كنعان (سليم جميل كنعان وعفت كنعان أبو عسلي) في ترميم القصر بعد تضرره خلال حرب الجبل لإعادته لما كان عليه من تحفة أثرية ما زالت قائمة إلى يومنا الحاضر.[12]

[11] صنّف هذا القصر بأقسامه المتعددة في عهد الشيخ بشارة الخوري، أول رئيس للجمهورية اللبنانية بالتعاون مع مديرية الآثار بموجب مرسوم جمهوري من المعالم الأثرية المهمة في لبنان.

[12] كان الدكتور جميل كنعان، من أعلام عبيه، درس طب الأسنان في الجامعة الأميركية في بيروت وتخصص في جامعة هارفرد في الولايات المتحدة (1929م) ليبدأ التدريس في كلية طب الأسنان في الجامعة الأميركية في بيروت. أسس نقابة أطباء الأسنان في لبنان وأصبح نقيباً. ود. جميل هو من باشر ترميم هذا الصرح التاريخي بتشجيع من زوجته الأديبة إفلين حتي ويعمل حالياً المهندس جميل أبو عسلي ابن الست عفت كنعان على ترميمه.

انتهت الجولة الصباحية بالوقوف عند المدرسة الدّاوودية، فالغداء في "مطعم المصطبة" المواجه للمدرسة. في طريق العودة إلى بيروت كان لنا لقاء في عاليه - عروسة المصايف اللبنانية - مع كاهن رعيّة كنيسة مار جورجيوس للرّوم الآرثودكس الأب الدكتور جورج مسّوح. هناك سمعنا لأول مرة عن الواقع المحزن لعودة المسيحيين الخجولة إلى قراهم (تقريباً 25 بالمئة (شتاءً) -30 بالمئة (صيفاً) (يعني 350 عائلة من أصل ألف عائلة عادت إلى قرية عاليه) والسبب عدم توفر شروط المصالحة الوطنية الحقيقية.

انتهت الرحلة بزيارة الأميرة حياة أرسلان وسيدات عاليه الناشطات في العمل الاجتماعي في قصر المير مجيد أرسلان الأثري (1886م). والسيدة حياة أرسلان هي مؤسِّسة "هيئة تفعيل دور المرأة في القرار الوطني"، وهي شخصية، بشهادة مختار عاليه السيد غابي عطوي، "بتلمّ الكلّ وليست محسوبة على طائفتها وعندها محترف وما عندها مُبغّض."

فائدة الرحلة:

هذه الرحلة السياحية في الداخل اللبناني تفيد على ثلاثة مستويات: مستوى أعضاء الحركة ذاتِها، اللواتي قمن بتحضير الرحلة: من التفكير بغرضها إلى تنظيمها والقيام بها. وهذا التحضير هو بداية الحوار

الحقيقي والتفاعل بينهن، وهن أصلاً مختلفات فيما يعتبِرْن لغتهن الأمّ (عربية أو فرنسية) وثقافاتِهن الدينية (مسلمة أو مسيحية) واهتماماتِهن في الحياة (علمية أو اجتماعية)، ومن موقع الاختلاف هذا يبدأ امتحان الحوار. المستوى الثاني: يتعلّق بالمشاركين في الرحلة الذين يعتادون مع مرور الزمن على القيام بمبادرات شخصية، مهمّتها وطنية وسلمية، بهدف التعرّف على أهلنا في الوطن في جوّ من الألفة والمحبة مما يُحدث تغييراً في دواخلهم الإنسانية. هذا عدا أنّنا من جيل الحرب اللواتي لم تتح لهن فرصة التعرف على وطننا من جديد والتواصل مع مجتمعاته. المستوى الثالث ردة فعل أهل عبيه على الزيارة كما قالت لي السيدة عفت حمزة[13]: "إنّ المبادرة التي قمنا بها في زيارة عبيه ضرورية للأسباب التالية:

لأنّنا غارقون في الطائفية، والطائفية في ازدياد أكثر فأكثر، ونتساءل كيف لم نتعلم من أخطائنا؟ ونحن نخبة ينبغي أن يكون لنا دور فعّال. لقد جمعتمونا وفهمنا أنّ الدين معاملة وأخلاق والإنسان عدو ما يجهل. رجال الدين ما يزالون مسيطرين، ويخرّبون عقول الجهلة ودائماً المرأة تدفع الثمن. لي مآخذ عليهم، تحفظ من خروج المرأة من البيت، وعودة إلى الحجاب. عندما تقوى الأصوات المعتدلة تخفّ أصوات النشاز.. لقد تأثرت بسماع آيات من القرآن الكريم من الحاجة، وصلاة "أبانا" من المسيحيين، وقراءة الشيخ في المقام لخطبة الأمير السيد عبد الله التنوخي.

شهادة عفت كنعان: شجّعت زيارتكم لنا ومبادركتم الكريمة التواصل بيننا. فقد قصدتم البلدة واستقبلناكم بحفاوة وشغف لأنّ الجميع متحمس لعودة المسيحيين. وشعرنا أنّ عبيه في عيد. ونشطتم السياحة عموماً في عبيه التي عاش فيها المسيحيون جنباً إلى جنب مع الموحّدين الدروز، فعبيه تشكل صورة صغيرة عن لبنان. وقد شعر المسيحيون والدروز بضرورة المصالحة، واشتاقوا إلى أعياد المسيحيين كعيد السيدة، فصار الناس يختلطون أكثر.

التحديات التي تواجه سيدات درب مريم:

لا نصل إلى الإعلام المصوّر، فنحن نقوم برحلات تشبه الحجّ في دعوتها للسلام. ونجد صعوبة في انضمام الجيل الجديد إلى الرحلات، وهذا الجيل ليس له ذاكرة مرتبطة بالحرب، لكن عليه أن يتعلم كيفية المحافظة على الأوطان. وهناك صعوبة بالمتابعة السياسية مع الأطراف المعنية للتأثير، فقد عرفنا أنّ التصريحات السياسية غير المسؤولة تهدّد طمأنينة المواطن وقرار عودته إلى قراه. لكننا نؤمن بأنّ الرحلة من

[13] في مكالمة على الهاتف في تاريخ 27-3- 2015.

هذا النوع هي الطريق إلى الشفاء من أمراض الطائفية السياسية التي لا تزال تنخر عظام النظام اللبناني السياسي فتعطله.

11. **المشروع الأوروبي لتبادل المعرفة حول الأديان** EPIL

European Project for Interreligious Learning[14]

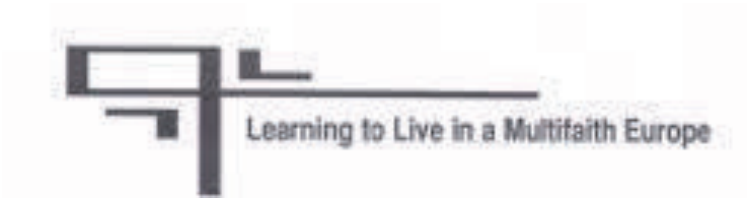

كما تعتمد حركة درب مريم على مفهوم الرحلة بوصفها نشاطًا يفعّل الحياة المشتركة والحوار بين المسيحيين والمسلمين، يدخل في صميم حاجتنا إلى التواصل والمعرفة والمصالحة، كذلك يعتمد مشروع **إ ب ل** على مفهوم الرحلة، لكن الرحلة هنا أطول مدة من الرحلة الأولى، وهي تشبه الرحلة في "طلب العلم" على الطريقة الكلاسيكية الإسلامية. فحيث تتزاور اللبنانيات في "درب مريم" بين القرى والبلدات اللبنانية المتضرّرة بفعل الحرب، بشكل موسمي - في نهار واحد- تتزاور خمسة أفرقاء من الأوروبيات، المسيحيات والمسلمات، من دعاة التفاهم والتعايش بين المجتمعات الأوروبية للدراسة في أكاديمية (متنقلة) مسارها بيداغوجي - يمتدّ على خمس مراحل - تلتقي فيها مجموعات من خمس عواصم أوروبية وعاصمة عربية هي زوريخ، فيينا، سراييغو، امستردام وكولون لينتهي بعد سنتين في بيروت.

يقدّم البرنامج التعليمي مزيجاً من المعرفة الأكاديمية للأديان، وتجارب في التعليم ولقاءات مع المجتمعات والمشاريع الناجحة، وورش عمل للتدريب على فكّ النزاعات والتعرّف على منظّمات نسائية لعبت دوراً في حماية النساء في أيام السلم وبعد انتهاء الحروب، ولها فاعلية وناشطية على الأرض في مجال حقوق النساء، وهي تقوّي العمل الجماعي والرحابة الدينية والبعد الروحي الواسع للأديان. خلال هذه اللقاءات تلتقي الطالبات بشكل منتظم في مجموعاتهن المحلية والقومية بهدف توسيع المسار التعليمي وتطويعه في سياقهن المهني. بالإضافة إلى أنّ البرنامج يهيئ أجواء تساعد على طرح أسئلة متعددة تخصّ حالات صعبة (كالمجازر والاغتصاب) والإجابة عليها، مما ينشط المساءلة والكشف عن بواطن الأمور والمحاسبة في مناخ متفهّم وغير سجالي أو قمعي. إلى جانب تهيئة المشاركات لقراءة نقدية للتراث الديني المتحيّز، وممارساته الثقافية القمعية، وعادات باتت تنتظر التغيير والتطوير.

[14] See, www.acronymfinder.com/**European-Project-for-Interreligious-Learning**-(Zü...

خلفية التفكير في مشروع إ ب ل:

نشأ التركيز على دور النساء في الحوار المسيحي - الإسلامي في سياقه الأوروبي بعد تضخّم حركات هجرة المسلمين في القرن الماضي إلى الحاضر الأوروبي،[15] والتي فرضت إعادة كتابة خريطة القارة الأوروبية لمواجهة هذا التغيير الديمغرافي. ونظرة سريعة إلى التزايد الديمغرافي للمهاجرين المسلمين[16] مقابل تراجعه للأوروبيين وتنامي نفوذ التيارات الإسلامية، لا سيما السلفية منها، داخل المجتمعات الأوروبية له دور كبير في تدهور العلاقة بين مجتمع المهاجرين من المسلمين وبين المجتمعات الأوروبية.

[15] "تراوح الأرقام في شأن أعداد المسلمين الذين يعيشون حالياً في أوروبا ما بين 20 مليوناً و45 مليوناً: 5 ملايين في فرنسا و4 ملايين في ألمانيا ومليونان في بريطانية. ويشير النائب الهولندي غيرت وايلدز في محاضرة له إلى أنّه في غضون 12 سنة سيصبح 25% من سكان أوروبا من المسلمين وأنّه في مدن أمستردام ومرسيليا أغلبية الذين دون سن ال18 من المسلمين كما يشير الباحث البريطاني كريستوفر كالدويل مؤلف كتاب: Reflections on the Revolution in Europe, Immigration, Islam and the West

إلى أنّه سنة 2006 كان 57% من المواليد الجدد في بروكسيل من المسلمين الذين يحملون أسماء مثل محمد ومهدي وحمزة." انظر رندة حيدر، هل تواجه أوروبا خطر الأسلمة؟" في النهار، الخميس، 10 شباط، 2011

[16] يتوزع أعداد المسلمين (يراهم الأوروبيون كمسلمين فقط) في أوروبا الغربية:

In France 5,576,000, 70% Muslims from al-Magreb al-Arabi; Germany: 3,200,000 Muslims, 11% from al-Magrem al-Arabi; Brittain: 1,700,000 27% from Iraq; Italy: 1,000,000 54& from from al-Magreb al-Arabi; Holland: 900,000 39% from al-Magreb al-Arabi; Belguim: 600,000, Sweden: 400,000, Switzerland: 400,000; Spain: 380,000; Austria: 400,000; Greece: 700,000; Denmark: 120,000; Finland: 40,000 52% are from Somal; in addition to some in Portugal, Norway and Luxemberg bringing the number of Muslims in East Europe to 34, 618,000 million population.

والمجتمعات المُسْلمة المهاجرة التي تعيش في أوروبا العلمانية - المندمجة منها بطرائق حياتها وتلك التي استعصى عليها الاندماج - قد أصبحت خائفة بدورها وتشكل مصدراً لخوف الأوروبي وقلقه أيضاً. والمجتمعات الأوروبية تطالب المسلمين بالسعي لفهم السياق العلماني والديمقراطي في أوروبا واحترامه. حتى أنّها تسائل المسلمين عن طقوسهم كأصوات مآذانهم (رفض سويسرا بناء المآذن) وملبسهم (رفض فرنسا الحجاب النسائي في القطاعين التعليمي والرسمي) وتقاليدهم الدينية خاصةً بالنسبة إلى حقوق النساء المسلمات المهاجرات. والسؤال الأخير له ما يبرّره خاصة مع ارتفاع أصوات بعض المسلمات المرتدّات عن مجتمعات بلادهن الأصلية بسبب عدة مشاكل منها تراجع المنظومة الفقهية النسائية.[17] لذلك على هذه المجتمعات الدينية والثقافية المسلمة، بنظر الأوروبي، أن تتعلم المنظومة الدينية المغايرة للآخر والعلمانية، وبالتالي احترام الاختلاف والعمل معاً.

1. **تاريخ المشروع**: إنّ الجهتين السويسريتين اللتين بادرتا بتأسيس مشروع **إ ب ل** هما: مجلس الكنائس العالمي (السيدة تني بيري- سيمونيان اللبنانية الأصل) وأكاديمية بولدرن البرتستينية في سويسرا (السيدة راينهلد تراتلر). تدير كل مجموعة عضوتان أكاديميتان: واحدة مسيحية وأخرى مسلمة للفريق الواحد وفريق من الطالبات المسيحيات والمسلمات للتدريب والتعليم. بدأ االتحضير لها عام 1999 حين ركزت على التجارب في الحوار الديني بين أكاديميات، تكوينهن العلمي يتراوح بين اللاهوت والعلوم البيبلية والقرآنية والتربية والبيداغوجيا، وذوات الاختصاص في الحوار المسيحي الإسلامي، وناشطات لحقوق المرأة في المسيحية والإسلام. وبدأت أول تجربة رائدة عام 2002- 2004.[18]

يعدّ مشروع إ ب ل برنامجاً تعليميّاً (أكاديمية متنقّلة) صُمّمَ من أجل تدريب النساء الأوروبيات المسيحيات منهن والمسلمات **على فِهم التنوّع الديني وإدارته من أجل بناء مجتمعات سلمية تتمتع بالمساواة في الحقوق والواجبات.** يرتكز هذا البرنامج الأوروبي على العلاقات الإسلامية المسيحية وعلى **الدور الذي تلعبه النساء في خلق ثقافة السلام وتنميتها.** يعتمد الأسلوب التعليمي في أكاديمية **إ ب ل** على السفر إلى عواصم معينة شهدت صراعاً في وقت من الأوقات، ولها تجربة في آليات الحوار وتطبيقه، قد أثبتت فعاليتها وجدارتها من المنطلقين الفكري والنفسي.

2. جولة عامة حول **عناوين القضايا** التي طرحت للنقاش في كل من العواصم المشاركة في المشروع الأوروبي الثالث 2011-2013: موضوع **"الهوية والاختلاف"** في **بولدرن** (قرب زوريخ) في سويسرا،

[17] انظر فهمي جدعان، خارج السرب: بحث في النِسوية الإسلامية الرافضة وإغراءات الحرية، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2010

[18] وثقت التجربة في كتاب بعنوان: "In the Mirror of Your Eyes", published in 2004.

ودرست من منطلق أنثروبولوجيا الأديان (صورة الله والإنسان في الكتاب المقدّس والقرآن الكريم وفهم المجتمعات والسلطة وحقوق النساء) والهوية الثقافية المؤطّرة (للفرد والمجتمع) من جهة النساء في التقليدين المسيحي والإسلامي. ثانياً، في **فيينا** (عاصمة النمسا)، كان الموضوع الرئيسي **تاريخ العلاقات بين المسيحية والإسلام في أوروبا**، وكيف أثّرت ولا تزال تؤثّر في السلوك العام والخاص.[19] ثالثاً، في **سراييغو** (عاصمة البوسنة والهرسك) التي شهدت في التسعينات حرباً شرسة بين الصرب المسيحيين والبوسنيين المسلمين وأطول حصار لعاصمة (1992-1996) نوقش موضوع: **"الصراع والقدرة على التعددية: تحليل استخدام وإساءة استخدام الدين"**. رابعاً، في **كولون**، ألمانيا كان موضوع الحوار **"الأهداف والشروط للهجرة والاندماج الاجتماعي"**. خامساً، وآخرها **"حل النزاعات والتعايش في مجتمعات متعددة الأديان" في بيروت**، لبنان.

3. الأهداف البيداغوجية: يفترض مشروع **إ ب ل** أنّ المجتمعات تستطيع **الإقرار بالتعددية** (الدينية) **واكتساب هوية** في سياق واقع معقّد عن **طريق تعلّم الاحترام والقبول والانفتاح على "الآخر."** وإنّ المجتمعات المتنوّعة الأديان يمكن أن تحقق الاندماج الاجتماعي والسلمي بأن تصير خبيرة بإدارة التنوع في واقعها المحلّي.

لذلك يدعم مشروع **إب ل** ثقافة السلام في الحياة اليومية - من خلال دعم مساهمات النساء بذلك. فمشروع **إب ل** مميّز بسبب تركيزه على الحوار بين النساء المسيحيات والمسلمات الأوروبيات. بهدف تحسين التفاهم بين المجتمعات المحليّة: فتقوم بتدريب النساء وتمكينهنّ ليأخذن الدور الفعّال وليقدّمن موقفهنّ المسؤول لمواجهة التحدّي الديني والثقافي في الحالات المستعصية. خلال السنتين (2011-2013) من زوريخ إلى فيينا وسراييغو وأمستردام وكولون وآخرها بيروت، شاركتُ مع الزميلة اللبنانية أمل ديبو في تنشيط فريق من الطالبات المسيحيات والمسلمات (فاطمة شرف الدين وإرما بالنيان وزينة أبو الروس ونسرين البنّا)، هن أصلاً فاعلات في مجتمعاتهن المحلية وجديرات بتجربة من هذا النوع. وقد تدربت الطالبات ونحن، الفريق الأكاديمي، على معالجة التحديّات الخاصة بنا بوصفنا لبنانيات نعيش حقبة ما بعد- الحرب الأهلية ونحتاج إلى طروحات جديدة للتعايش وفرض السلم الأهلي فيما بيننا.

احتوى التدريب على الحوار والألعاب والتمارين الرياضية والفنون (الرسوم) وغيرها من الآليات. من منبر إلى آخر سمعنا محاضرات وعروضاً، وحوارات مع شخصيات ناشطة في الشأن العام بُثّت بالإعلام المتلفز مباشرة. ناقشنا أمراً مهماً جداً، وهو أنّنا أتينا بكل خلافاتنا، لكن اتفقنا حول مبدأ واحد لنقد الفكر الديني

[19] هنا لا بدّ أن أذكّر أنّ وصول العثمانيين إلى فيينا العاصمة النمساوية عقر أوروبا، ومحاصرتها عام 1542 لا تزال تعيش في الوجدان الأوروبي بالضبط كحصار الصليبيين للقدس وسقوطها عام 1099 وذاكرتها الحيّة في قلوب العرب والمسلمين.

المؤدلج، وهو مبدأ "حصرية الخلاص" الذي يمارسه كل دين، وأنّ كل واحدة منا تأتي محمّلة بأحكام مسبقة. تعلمنا مصطلحات قواعد الحوار وآليّاته ومِراسه، وكيف يُعلّم من مراحل الطفولة إلى الجامعة، ليصبح ثقافة مرسّخة تعترف بحق "الآخر" في الحياة. سأعرض سريعاً **قواعد الحوار** التي تدارستها السيّدات المتحاورات:

"الاحترام" (أقصاه): حاولي أن تضعي نفسك في مكان الشخص المتحاور.

"الاعتناق" (أمبثي): ابقي باستمرار على الوعي بإنسانيتك المشتركة.

البطء في المسار الحواري: إنّ التفكير سوياً يتطلب الوقت والصبر.

تبنّي سلوك الساعي إلى العلم: لا تزعمي أنّكِ تعرفين بل على العكس أظهري شوقاً إلى التعلم من منظور جديد.

الإصغاء: أصغي باهتمام حتى تكتشف المتحاورة نفسها بطريقة جديدة.

تكلمي من القلب بصيغة "الأنا" المتكلّمة حتى تظهري مسؤوليتك تجاه مقولتك.

الصراحة والانفتاح: استعدي لسماع ما هو جديد ومساعد ويوسع من مداركك.

الاستكشاف: اسألي الأسئلة الصحيحة لا الأسئلة البلاغية فالشغف والبساطة في الكلام هي سلوكيات تساعد على الحوار.

تأجيل الأحكام المسبقة: احذري من المزاعم والأحكام المسبقة والعنصرية على أنواعها، وميّزي بين إدراكك القديم والجديد. انسي إطار ثقافتك الشخصية للفهم لبعض الوقت. وشاركي الآخرين معك في التفكير حول المسألة واكشفي عن افتراضاتك ونقاط ضعفك.

راقبي المسار: وراقبي نفسك لتعي أي نوع من الافتراضات بسلوكك وآرائك تجاه المتحاور.

رحلة سراييفو عاصمة البوسنة والهرسك (4-11 مايو 2012)[20]

تحت عنوان "الصراع وإمكانية التعدّدية: استخدام أو إساءة استخدام الدين"، اجتمع الأفرقاء الخمسة في سراييغو. وبدأت أوجه الشبه بين لبنان والبوسنة تظهر من عدة أوجه: من صغر حجم سكانه إلى طبيعته الجبلية

[20] نشرت هذه الرحلة بشكل موسع في جريدة الحياة بتاريخ السبت 26 مايو 2012 ص. 29.

الجميله وتنوّعه الثقافي والديني. ولحُسن حظّ اللبنانيين أنّ لبنان، بعد اتفاقيّة الطائف (30 سبتمبر 1989) التي أنهت الحرب الأهلية اللبنانية، لم يُقسّم إلى كانتونات لتعيش كلّ طائفة في كانتون وحدها. **لكن البوسنة والهرسك، بعد اتفاقيّة دايتون - باريس (1995) قسِّمت تقسيماً عرقياً ودينياً، بحيث أخذ 49% الصرب البوسنيون و51% إلى الفدرالية الكرواتية المسلمة.**

زرنا مدينة سراييفو وتزلا وسترابرنيتزا (موقع المجزرة الشهيرة ومتحف المقبرة الجماعية) وزنكا.

تخلّل اليوم الأوّل من الأسبوع محاضرات في كليّة الدراسات الإسلامية في جامعة سراييفو. والكلية تقع في مدرسة عمرها 120 سنة قامت عمارتُها على الطراز الأندلسي الحديث. وقد بنى النمساويون المدرسة بعد خروج العثمانيين من سراييفو، وكان غرضُهم هو تعليم القضاة وتدريبهم على الفقه الإسلامي في عقر دارهم. ورأيهم أنّه من الأفضل للمسلمين التعلّم في سراييفو على الخروج إلى القاهرة أو دمشق أو باقي الأقطار العربية الإسلامية للدراسة والتعليم. والأحوال التي مرّت بها المدرسة تشبه تاريخ المدينة نفسها: فقد ألغيت المدرسة **بعد الحرب العالمية الثانية، وتحوّلت مع جمهورية يوغسلافيا الاشتراكية الاتّحادية إلى متحف سراييفو**، وسقط عليها مئات القذائف في الحرب في سنوات حصار سراييفو الطويل.

ثمّ عادت المدرسة لتستضيف الطلبة والأساتذة، وعادت إلى سابق طرازها الأندلسي. والجديد في المدرسة هو المسجد الذي يقع في قلب المدرسة، وقد احترت بأمر مِحرابه، فعندما نوينا صلاة المغرب وراء مفتي جمهورية البوسنة السابق الدكتور مصطفى سيرتش، أخذت أنظر بحيرة إلى المحراب لتحديد تّجاه الكعبة، فرأيت محاريب أربعة لا واحداً كما هي العادة وقد قيل لي إنّ ذلك للدلالة على المذاهب الفقهية الأربعة.

والجديد أيضاً أننا تعرّفنا على إسلام أوروبيّ، لكنه ليس بجديد على أهل **بلاد غرب البلقان**، وهم **البوشناق**. فقد جاء الإسلام مع العثمانيين منذ أوائل القرن الخامس عشر، وكان لهم اليد الطولى في بناء مدينة سراييفو، من البنية التحتية إلى البيوت والمساجد كمسجد غازي خسرف باي (1530)، والمدارس كمدرسة غازي خسرو بيك، والأسواق كبروسا بازيستان، ومريتسا خان وغيرها.

سمعنا في كلية الدراسات الإسلامية محاضرات لا بدّ من ذكر عناوين بعضها: محاضرة عميد الكلية د. عصمت بوشتليق عرض به برنامج التعليم في الكليّة، ومحاضرة السيّدة **زهرة** أليسباهك التي عرضت لنا مساهمات النساء المسلمات في البوسنة. وما يلفت الانتباه في محاضرة الأستاذة زهرة هو خلوّ ورقتها من أيّ أسئلة حول المنظومة الفقهية الإسلامية، ووضع المرأة في القضاء الشرعي الإسلامي، وهو ما يشغل بالنا نحن المسلمات العربيات. وعند السؤال عن هذا الموقف المطمئن من القضاء الشرعي ومنظومته لحقوق المرأة ومسؤوليّاتها، علمنا أنّ الأحوال الشخصية لا تتبع الشريعة الإسلامية في جمهورية البوسنة والهرسك، بل تتبع القوانين المدنية، كما كانت عليها في أيام جمهورية يوغوسلافيا سابقاً. ومن يريد تسجيل زواجه في المحكمة الشرعية أو في الكنيسة الأرثذكسية أو الكاثولكية فله مطلق الحريّة أن يفعل ذلك لكن بعد أن يكون سجّله في

سجلات الدولة المدنية. ومن ثمّ قدّم كلّ من د. علاء الدين هوسك ود. أدين رادوزك محاضرتين حول الظروف التاريخية لنشأة الأديان وتطوّرها في البوسنة- والهرسك.

في المساء حضرنا حفلة موسيقية في أحد مسارح سراييفو. هناك تنوّع ثقافي وديني في هذه الجمهورية (عاش اليهود والمسيحيون والمسلمون معاً) مثلها مثل لبنان (حيث يتعايش المسيحيون والمسلمون معاً منذ مئات السنين). وإن عانت سراييفو مثل بيروت حرباً أهلية وقتالاً شرساً، ودخلها كثير من الجيوش باسم السلام، فقد دخلت بيروت جيوش عربية شقيقة وجيوش أمريكية وحتى الجيش الإسرائيلي دخل بيروت (11 يوماً فقط عام 1982). وبعد أن دخل سراييفو جيش الصرب، وكان حصار سراييفو أطول حصار لمدينة شهدتها أي عاصمة في التاريخ المعاصر (مدّة 1300 يوم من 5 أفريل 1992 إلى 29 فبراير 1996)، وبعد أن فكّ الحصار دخلها جيش الأمم المتّحدة. وكلّهم باسم السلام بقوا فترة، وباسم السلام ارتكبت أبشع المجازر الجماعية والإبادية. فمن من اللبنانيين والفلسطينيين ينسى مجزرة صبرا وشاتيلا (1982) ومجزرتي قانا (1996 و2006)! ومن من البوسنيين ينسى مجزرة ستربينتزا التي قضى بها في تمّوز من عام 1995 حوالي 7000 رجل وشاب. السلام نطمح إليه في لبنان، كما يُطمح إليه في البوسنة والهرسك، لكنّ السلام لا يشترى ويباع من خارج الأوطان، بل يُسعى إليه من الداخل.

وقد شاهدنا بأمّ أعيننا قيمة الإنسان وقدسية الحياة. حيث زرنا "مركز البحث عن الهويّات" لا للأحياء بل للجثث. وتحدّثت مندوبة المنظّمة العالمية للمفقودين في مجزرة الإبادة الأكبر في بلاد البوسنة والهرسك، في بلدة توزلا، عن المسار الذي يبدأ بحثاً عن آثار المفقودين من ضحايا المجزرة للتأكد من مصيرهم ودفنهم أمواتًا في الذاكرة، للتعلّم على عودة الحياة والنسيان والغفران. والنسيان والغفران أعتبر، كما ناقشتُ مع الزميلة السويسرية آن كريستين، أنّ مسارهما طويل يلزمهما اعتذارات من مجرمي الحرب وتعويضات كبيرة لأهل الضحايا، فالتعويض عن طريق الكلام بالاعتذار لا يكفي لأنّ الإنسان بالنهاية مسؤول عن أعماله وفظائعه.

وهذا مما لم يحصل بعد كما رأينا وعاينا في زيارتنا إلى مقبرة ستربينتزا الجماعية حيث قرأنا الفاتحة على أرواح الضحايا الأبرياء، وسألنا السؤال الأكثر إلحاحاً: لماذا آمن الرجال البوسنيون على أرواحهم وعيالهم ونسائهم وأطفالهم، فتركوا أسلحتهم لفريق الأمم المتحدة (الهولنديون المتواطئون) ففتحت الأبواب للجيش الصربي ليقوم بجرائم الإبادة الجماعية؟ وهذا الفعل كالفعل الإسرائيلي في الفلسطينيين هو استراتيجي وعنصري ضدّ أصحاب الأرض، فالخوف المروّع من الموت والتنكيل والتعذيب يجعل الناس يهربون ويتركون بيوتهم وقراهم وبلداتهم، ولا يعودون إليها، وهذا ما يسمى التطهير العرقي. وهكذا خسر الفلسطينيون بيوتَهم، واختفت مئات من القرى الفلسطينية، وهكذا اختفت معظم فلسطين من الخارطة الجغرافية. لكن البوسنيين، وإن خسروا الحرب، وخسروا الرجال والشباب، وكرهوا معاهدة دايتون (أميركا – باريس 1995) التي قسّمت البلاد بحسب أعراقهم وأديانهم، فقد استعادوا بيوتهم وقراهم وبلداتهم وهم بطور بناء مجتمعهم الإنساني مع بناء العمارات والبنية التحية.

لا أعزّ من كرامة الإنسان والاعتراف بحقه في الحياة وهذا أول درس تعلمناه. فحين اجتمعت بعض أمّهات ضحايا مجزرة ستربينتزا لسرد قصة فقدانهن لرجالهن وأبنائهن، من مبدأ أنّنا جئنا للتعزية لا لسماع القصص. كان هناك ما يخيف من الطرائق التي استعملت للقتل والتنكيل والإبادة. وأصبح السؤال الملحّ علينا لا

كيف ينسى الناس ما حصل ويغفر لمرتكبي المجازر (الصرب على المسلمين)، بل كيف يرتكب أناس مثل هذا الإجرام ويذهبون في آخر الليل لينامو في أسرّتهم أحراراً. وقد أجابت على هذا السؤال الدكتورة فهيرة فجزك-سنجك في محاضرتها، حين أشارت إلى أسطورة يخترعها مجرمو الحرب لينفّذوا جرائمهم. أسطورة يخترعونها ليعيشوها بطرق ملتوية مثل الهلوسة والكحول والتخدير لإلغاء الآخر والتندّر بعقدة "عظمة البقاء للأفضل".

الذهاب والإياب من ستربينتزا، ومن ثمّ السفر إلى بلدة زنيتا تُنسيك مشهد المقبرة الجماعية السوداء. في مدينة زنيتا كانت لقاءاتنا في مقرّ منظمة ماديكا (زنيتا) غير الحكومية، وهناك تعرّفنا على نضال المرأة البوسنيّة المسلمة والمسيحية إبّان الحرب وبعدها، ونجاح مشاريعهن لأجل نساء البوسنة. وكان لنا لقاءات مع مجموعة من الناشطات في الشأن العام كلّ في ميدانها العلمي أو العملي.

أهم ما في هذه اللقاءات هو التطوير الذي قامت به النساء لقواعد الحوار. وبعضنا يفهم الحوار أنّه المعيش اليومي بين الناس، وما يقوم بينهم من تواصل. لكن الحوار الذي نتكلّم عليه هو الحوار الذي يسبق النزاعات ويخفف من وطأتها حتى لا تنتقل إلى مرحلة القتال والحروب. والحوار الذي نتكلّم عليه هو الحوار الذي يلحق الحروب، كما فعلت نساء البوسنة مجتمعات. فالسيدة صبيحة والسيدة يادرانكا والسيدات الناشطات معهن في منظّمة "مديكا" زنيتا، قد أبدعن طرقاً جديدة للحوار. حيث قدمن خدمات لأربع مائة ألف امرأة وطفل في بيوت أسمينها "بيت الأمان"، وعالجن بالعلاج النفسي بالاستعانة بالأطباء النفسيين، وأنشأن بيتاً للحضانة وتلفونا للطوارئ. وهناك حالات صَدْمات "تروما" بالآلاف (7500 ناجية من ضحايا الاغتصاب) فقمن بمساعدة هؤلاء النساء للحصول لهن على حقّهنّ الشرعي بالاعتراف الاجتماعي بهن، وبالتعويض لهن على أكثر من مستوى. وهناك اجتهادات للحماية من العنف الداخلي وللتصالح والتعايش. لذلك صدر عن المركز ستون مطبوعة تسدّ الحاجة المعرفية والمعلوماتية إلى ما هنالك.

النساء القائمات على أعمال من هذا المثيل والناشطات، كما قالت الأستاذة زلاتيبوركا بوبوف مومسينوفك من كلية الفلسفة في شرق سراييفو، **قد نجحن بتخطي ازدواجية الديني والعلماني، ونجحن بالفصل بين الديني والمجتمع المدني. وبالمبادرة النِسوية الناشطة لقضايا المرأة فتحن الطريق لتطوير لاهوت نِسوي للمسيحيات وللمسلمات، علمٌ يفكك المعطيات الأبويّة السلطوية المختزنة في الوعي الذي يقدّم باستمرار تعليلات لعزل الآخر ولاستخدام العنف حلّاً للنزاعات**. فنساء البوسنة كن الأوائل في استقبال العائدين إلى بيوتهم، وفي تقديم المساعدة بالدعم الشرعي والاقتصادي والأخلاقي، لجعل الحياة اليومية أقل إيلاماً وأكثر إنسانيّةً.

لقد قدّمنا صورة عما شاهدناه وسمعناه من نساء البوسنة والهرسك التي كانت منضوية في اتّحاد يضمّ ست مقاطعات مكوّنة جمهورية يوغوسلافيا الاشتراكية الاتّحادية السابقة. ثم نالت في التسعينات من القرن المنصرم استقلالها. ويوصف كيانها بأنه جمهورية اتّحادية ديمقراطية حيث انتقل اقتصادها إلى نظام السوق الحرّ، وهي مرشّحة محتملة لدخول عضوية الاتّحاد الأوروبي.

ويبقى السؤال الذي ظلّ يلحّ عليّ: "ما وراء العودة إلى الشخصيّة الإسلامية ورموزها في سراييفو؟

هل السبب المجازر المخيفة "أستغفر الله العظيم منها" فيصبح البحث عن المخزون الديني نوعًا من الأمان والإصرار على الهوية الدينية والاختلاف. أم هو التعويض بعد الحرمان الذي مارسه النظام اليوغسلافي السابق ضدّ المسلمين ومظاهرهم الدينية، فلم يلبث أن سقط النظام حتى تنفس المجتمع مطالباً باستعادة هويّاته المتعدّدة ومنها الدينية. والجواب مزيج من الإثنين. مع الشكر للقائمات على هذا المشروع، من سويسرا راينهلد تراتلر وتني بيري- سيمونيان، وللمنسّقات والمشاركات في جعل هذه الرحلة الأوروبية إلى بلاد البوسنة والهرسك جديرة بلقب "الرحلة في طلب العلم".

المبادرة النسائية في مشروع **إ ب ل**:

شكّلت تجربة مشروع إ ب ل دفعاً معنوياً وتمكيناً لنا بوصفنا نساء عربيات من لبنان ومعنيات بالحوار الديني والثقافي. وتنبهنا إلى أهمية التشبيك بين النساء للتصدّي للعنف، والحروب التي تأخذ النساء منها نصيبها الأكبر من العنف الموجه ضدها.[21]

أشعر اليوم أنّ لدي عائلة أوروبية أقدر على التفاهم معها وسؤالها في أي أمر يهمني. إنّ التعليم من خلال تجارب حياتية في أجواء رحبة هو خير بيداغوجيا للتعرف على ذواتنا أيضاً. في النهاية قدمت الطالبات في كل فريق من الأفرقاء الخمسة أوراقاً بحثية حول كيف يتم تطبيق هذه التجارب في محيطهن المهني ومجتمعاتهن المأزومة؟ وشاركن كمنسقات الأفرقاء الخمسة الأكاديميات في وضع كتاب سيخرج إلى الطباعة يوم 13 يونيو 2015 في سراييفو.

إنّ فهم أهداف مشروع إب ل في السياق الأوروبي ودراسة إمكانية **صوغ مشروع مماثل تلعب فيه نساء المشرق العربي ومغربه دوراً في خلق ثقافة التنوّع وإدارتها** وفي رفع مستوى خطاب حقوق المرأة

[21] إنّ قانون الأمم المتحدة 1325 لحماية النساء من العنف جدير بالاهتمام.

وواجباتها إلى مستوى التنظير والفاعلية أمر مهم جداً. وأقترح على الزميلات المغربيات في المغرب العربي وفي العالم الأوروبي العمل على تطويع هذا المشروع لصالح النساء والسلم الأهلي. هذا التطويع يعمل على:

- إظهار الإسلام والأديان الأخرى أو الثقافات الأخرى "باعتبارها منظومات وجود" في هذا العالم العربي والأوروبي المتنوّع.

- سبر طبيعة الحرية الدينيّة في السياق الديمقراطي، وسيطرة الخطاب الديني السلفي أو الإخواني المتطرّف على الثقافة العلمية وسوء فهم العلمانية في المجتمعات العربية.

- بناء الوعي بدور المسيحية والإسلام الحضاري والتاريخي في البلاد العربية وأوروبا والطريقة التي تؤطّر بها الذاكرة العلاقات الحاليّة بين الناس وفي الحياة اليومية. انظر إلى وجود أربعة أحياء: حيّ اليهود وحيّ المسيحيين وحيّ المسلمين وحيّ الأرمن على مدى 1436 عام من تاريخ الإسلام الحضاري في بيت المقدس (فلسطين).

- تحليل الظروف التي يمكن أن تؤدي إلى إساءة استخدام الدين لأهداف غير دينية، وتقديم الطرق الملائمة لتجنّبها. وسوء استخدام الدين بسبب تدخل الدين في السياسة أصبح من الأمور الإشكالية التي من واجبنا رفضها بجدية ومقاومتها بمسؤولية لأنّها ليست خطراً على الأوطان فقط بل هي خطر على الدين نفسه.

- تطوير منظور "المساواة بين المرأة والرجل"، أيّ تطوير الوعي ب"خطاب التحيّز للذكورية - والذكورية المتسلطة غير الرجولة المسؤولة - والاعتراف بأدوار النساء ومساهماتهن"، تقوية للمساواة وللاعتراف بالعنصر النسائي في المجتمع والحياة والتاريخ. وهذا الطرح اليوم من أهم الطروحات للتغيير السياسي والمشاركة في الحياة المدنية والديمقراطية.

- تحفيز الخطاب الديني المعتدل على خلق ثقافة السلام اليوميّة والاندماج الاجتماعي والتحرّي عن دور النساء في هذه العملية.

- المساهمة في القضاء على العنف وفي ترويج ثقافة احترام حقوق الإنسان وواجباته، وتدريب الطالبات على طرق أثبتت جدارتها في الحوار والتواصل وتأمّل النزاعات. حفظ قواعد الحوار وتطبيقها بما يليق بالمعرفة الصحيحة ومسؤولياتنا أمام العالم وجيل الغد من الشابات والشباب.

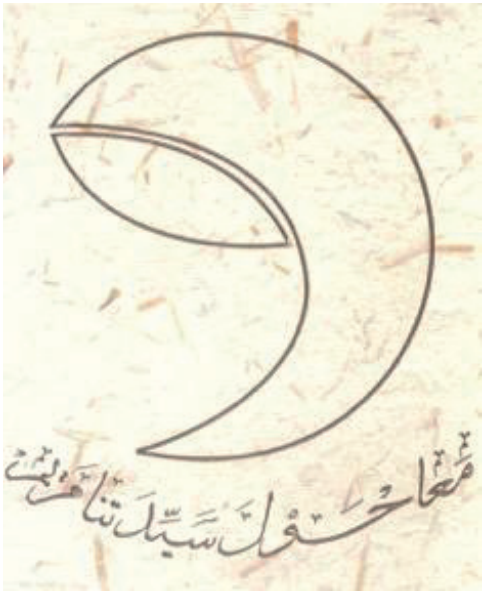

111. **"عيد البشارة" (25 مارس من كل عام) عيد وطني رسمي مشترك بين المسيحيين والمسلمين في لبنان**

يحتفل المسيحيون والمسلمون في لبنان كل عام - يوم 25 مارس- بعيد "البشارة"،[22] والبشارة هنا تشير إلى "الخبر السار" الذي تلقّته السيدة مريم بحسب المعطى الكتابي المسيحي والإسلامي. وكأنّه عيد يبشّر اللبنانيين بالخلاص بعد انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية. لماذا يحتفل اللبنانيون بهذا العيد المريمي - والعيد أصبح عيداً وطنياً رسمياً (لا دينياً) منذ 2010 - ولا يحتفلون بأعياد مسيحية أخرى كعيد الميلاد (25 ديسمبر) مثلاً، وللعيد جذور في التقليد التقوي القديم؟[23]

لماذا تصبح البشارة عيداً؟

ولماذا أصلاً يعيّد المسلمون مع المسيحيين في عيد مريمي، مما لا سابقة له في تاريخ المسيحية والإسلام؟ والجواب مباشر وبسيط. لأنّ عيد "البِشارة" لن يشكّل خلافات عقائدية بين المسلمين والمسيحيين، ولأنّ اللبنانيين يريدون أن يحتفلوا ب"البشارة" التي تجمعهم، لا بالمناسبة التي تفرّقهم. فالبشارة التي تلقّتها مريم بأحشائها توجّهوا إليها لتلُمّ شملهم؛ فقد تيقّظ المسلمون فجأة إلى هذه "الإشارة المريميّة" - بتعبير أبي التلاقي المسيحي الإسلامي لويس ماسينيون - لاستحضار **قيمة الرحمة الربّانية** التي **تمثّلها مريم في وجداننا**

[22] انظر إلى الاحتفال هذه السنة، يوم 25 آذار، 2015، في

http://www.ndj.edu.lb/fete_annociation_20150325

[23] كمنحولات العهد الجديد بالأخصّ إنجيل يعقوب التمهيدي، الذي لقّب بالتمهيدي لأنّه يمهّد لإنجيلي لوقا ومتّى. وهذا الإنجيل لدينا منه النسخة اليونانية من القرن الثاني ميلادي وله صدىً قويّ في الليتارجية والفنون.

الديني باعتبارها قيمةً تحتاج للاستنهاض، فأرادوا الاحتفال بها سويّا علّهم ينتبذون عن الخلافات والصراعات ويستعيضون عنها بالمشتركات وبمبدأ التراحم. فمبدأ التراحم الذي يربط المسيحية بالإسلام بهذا النسب الأمومي يرفض نكران الوحدة الروحية بين الرسالات الدينية الكبرى.

ما هي البشارة بالنسبة إلى المسيحيين وبالنسبة إلى المسلمين؟

1. **البشارة بالنسبة إلى المسيحيين** تعني الأخبار السارّة التي تلقّتها مريم بقبول وإيمان وطاعة، ففي الإنجيل بحسب لوقا، ولوقا هو الإنجيلي الأكثر حساسية للمرأة والفقير والمهمّش، نقرأ:

"فقال الملاك: "لا تخافي يا مريمُ، فقد نِلت حظةً عند الله. فستحملين وتلدين ابناً فسمّيه يسوع. سيكون عظيماً وابن العليّ يُدعى، ويولّيه الربّ الإله عرش أبيه داوود، ويملك على بيت يعقوب أبدَ الدهر، ولن يكون لملكه نهاية." (لوقا 1: 46-54).

فالملاك جبرائيل هنا كلّم مريم وسلّم عليها وأخبرها بنعم الله عليها فكانت البشارة بالحمل والولادة والتسمية.

وكذلك كلّم الرسول مريم في القرآن الكريم في سورة مريم قائلاً:

"إنّما أنا رسول ربّك لأهبَ لكِ غلاماً زكيّاً" قالت: "أنّى يكون لي غلامٌ ولم يمسسني بشرٌ ولم أكُ بغيّاً" "قال: "كذلك قال ربُّكِ: هو عليّ هيّنٌ ولنجعله آيةً للناس ورحمةً منّا وكان أمراً مقضيّاً."

(سورة مريم: الآية 19-21).

استقبلت مريم البِشارة بعد أن قامت برحلة، انتبذت بها عن أهلها إلى المكان القصيّ، لتمرّ بمخاض، على الصعيد النفسي والجسدي، ذلك أنّها تلد وحيدة في مكان موحش حيث لا طعام ولا ماء ولا طمأنينة. مما يدلّ على أنّ المخاض يقع على أكثر من مستوى، إلا أنّ المعنى يبقى واحداً. **إنّ السيّدة مريم، بانتباذها ومخاضها حملت أمانة تكليف المرأة لها، ومرّت بالاختبار الإيماني**، كل ذلك تحضيراً لتلقّي البشارة على لسان الرسول، أو روح الله كما تقول الآية:

"فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشرًا سويّاً" (سورة مريم الآية 17).

فالإعلان أنّ روح الله أرسل إلى مريم، وأنّ الملاك كلّمها كما يكلّم الأنبياء يجعل "مريم نبيّة" عند بعض علماء الكلام والمفسرين الكلاسيكيين الأندلسيين كابن حزم والقرطبي،[24] وقد ناقش المسلمون المفسّرون الكلاسيكيون المشارقة والمغاربة هذه المسألة بين مثبت ونافٍ، [25] كما ناقش المسيحيون مسألة أمومة مريم للرب (تيوتوكس) بين مثبت ونافٍ. لذلك قد نجد قاسمًا مشتركًا في مكانة مريم الدينيّة بين التراثين: فهناك في المسيحيّة من لا يقبل أمومة مريم للإله (تيوتوكس) معاذ الله، وهناك من يعلّي شأن مريم إلى مركز النبوّة بين المسلمين. فيلتقي هؤلاء المسيحيون والمسلمون في هذا الشأن الذي يعدّ شأناً عقائديّاً بامتياز، وإن كنّا في عصر غوغل والتواصل المعلوماتي السريع، حيث لسنا هنا في زمن النبوّة والأنبياء، بل نعطي هذا المثل على سبيل المحبة والرجاء.

هذا في رحلة مريم إلى الصحراء التي اكتملت بها ذات الأنثى بالأمومة، حين أظهرت مريم استعدادها لقبول كلمة العهد التي تجسّدت حياةً بالروح. وألم المخاض تمرّ به كلّ أنثى قبل الولادة. فـ **"الكلام عن الخاصّ والقصد منه العام"** هي قاعدة نستمد منها فهم الآيات الكريمة، وهي قاعدة من قواعد التفسير. فكيف بالأنثى التي ستحمل الكلمة فيما بعد للتدريب في المحراب على القنوت والسجود والركوع مع الراكعين. ففي سورة آل عمران، ونذر أمّها لها للتحرير في المعبد، ونذر مريم للرحمان صوماً (سورة مريم) ما يؤكّد لنا علناً أنّ تديّن المرأة والتزامها الديني بالعبادات والصلوات والنذور ينسجم مع الرؤية الإسلامية التي تساوي بين الرجل والمرأة في المجالين الروحي والأخلاقي، **وهذا هو إعلان مسؤوليّة المرأة الخلافية على الأرض، وصلاحية تكليفها الديني.**

هكذا بشّرت مريم (سورة مريم) خارج المكان (في الصحراء) وهي مرتحلة، كما بشّرت مريم داخل المكان وهي معتكفة (المحراب أو الهيكل)، وكأنّ البشارة التي تشبه بشارة أنبياء العهد القديم والجديد، جاءت على لسان الملك بالجمع تعظيماً للمناسبة وإقراراً باستخلاف المرأة على الأرض، إذ قالت الملائكة:

"يا مريمُ!
إنّ الله يُبشِرُك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم
وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين
ويكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين." (سورة آل عمران: 45-46)

---

[24] انظر فصل "نبوّة مريم" في حُسْن عبود، السيدة مريم في القرآن الكريم، دار الساقي، 2010.

[25] ظهر "النزاع" حول مسألة "نبوّة مريم" في الأندلس، كما أخبرنا الفقيه الظاهري ابن حزم الأندلسي وصاحب التفسير الكبير القرطبي الفقيه المالكي الأندلسي، لكن لم تثبت أو تنفى المسألة. وقد نوقشت المسألة آنذاك من باب كرامات الأولياء (مريم صدّيقة)، وصدّيقيّتهم مقابل نبوّة الأنبياء ومعجزاتهم (مريم نبيّة).

إذاً من الممكن الاحتفال بالبشارة لأنّ المعطى الكتابي في الإنجيل (بحسب لوقا ومتّى) وفي القرآن الكريم (سورة مريم ثمّ سورة آل عمران) سجّلا هذا الحدث العظيم في تاريخ الخلاص الإيماني، الذي كلّم به الملاك مرسلاً من الله إلى امرأة تحمل بُشرى الله بحياة جديدة. إنّ القدسية التي وردت بها آيات مريم في كلا التقليدين الكتابيين يجعل المعطيات الكتابية المرتبطة بمريم مهمة لإبرازها واستنهاض مخافة الله في مريم، فهي للمسيحي ساهمت، كما قال لنا الأب أنطون مخايل، بالعمل الخلاصي- التاريخي، وبحضورها المستمرّ بقلب المسيحي. أما بالنسبة إلى المسلم فقد **ساهمت بحمل الكلمة وبتكليفها على طريق الأنبياء**. فلماذا توارت مريم والمريمات كل هذه السنوات عن حياة المسلمين؟ فالمسلم لا يعيش تقوى مريم كما يعيشها المسيحي، وإن ذكرها كلّ يوم بتلاوته الآيات الكريمة جهراً وفي القلب.

هناك أكثر من عشر جمعيّات مريميّة تجتمع أسبوعيّاً قبل 25 آذار تحضيراً لهذه المناسبة، (منها سيدات درب مريم تريز فرا وحُسن عبود) وينتدب المسيحيون والمسلمون كنائسهم ورهبانهم وجمعيّاتهم المريمية والتربوية المختلفة والخيرية للمشاركة في هذا التحضير. ويُستدعى الشيوخ بعمائمهم والقرّاء للمشاركة بأجمل التلاوات والأذكار، وتحضر الشيخات بأغطيتهن البيضاء والراهبات بلباسهن الموحّد، والنساء ذوات التوجّه الصوفي والغيورات على السلام في لبنان لإلقاء الكلمات والشهادات.

يعيد اللبنانيون بعيد البشارة لمريم بلا ضجّة إعلامية، وبحضور روحي، بالتراتيل والمدائح والكلمات البلاغية، لترقى بها أنفسهم بالمشاركة الجماعية الشعائرية والفنيّة والبيانية التي حفظت واستحضرت على أمل أن تفتح القلوب للآخر وللغيريّة. ومن المبتكر الجديد في الحوار المسيحي الإسلامي أنّ الاحتفال من كل عام يبدأ في كنيسة مدرسة الجمهور (بعبدا) اليسوعية بتلاوة من آيات القرآن الكريم إلى جانب قرع أجراس الكنيسة عالياً. وكأنّ اللبناني يدعو الجميع للاحتفال بعيد يبشّر بالسلام عسى أن تدخل بلادنا العربية، التي تعيش ثورة الإنسان، للحرية والرخاء والعدالة الاجتماعية، في مرحلة استقرار وسكينة.

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com